

## الأمةُ العربيَّةُ بِـيَنَ الموتِ و الحياةِ!

المقدمة:

يقولُ المثلُ الشَّعبيُّ المشهورُ: [لو عُرِفَ السَّببُ بِـطَلِّ العَجَبِ] لذلك فأزنا سنُيِّنُ الأسبابَ الرُّئيسيَّةَ التي أدَّتْ إلى تفاقمِ المحنِّ و الدِّمارِ و التخریبِ الذي نعانية كمؤشراتٍ على كلِّ صعيدٍ لتكونَ مقدمةً للدخولِ في صلبِ الموضوعِ لاحقاً، فالحضاراتُ والشعوبُ تتعرضُ للفناءِ و آلانذارِ كالأفرادِ و التنظيماتِ و القرىِ و الدولِ، و ليس من أحدٍ مُحصِّنٍ ضدَّ الزَّوالِ، فهناكُ أجلا ن أجلُ "محتوم" و أجلُ "مخروم"، فالأمةُ التي تتوفَّرُ فيها كلُّ العواملِ الطبيعيَّةِ للحياةِ تنتهي بأجلها المحتوم، و إذا قصَّرتُ الأمةُ في مُمارسةِ حياتها الطبيعيَّةِ من خلال انتشارِ عواملِ موتها ستنتهي قبلَ أجلها و ستموتُ و تنتهي كما انتهت الأممُ السَّابِقةُ.

يعتقدُ جميعُ الفلاسفةِ و المفكرينَ البارزينَ بأنَّ موتَ الأممِ قد يعني موتها بالمعنى الحرفيِّ المباشِرِ و المعروفِ، أيَّ اختفاءها الماديِّ من الوجودِ أو ضعفها و هوانها و إستبدالها بمشروعٍ آخرٍ مُصحِّحٍ لها أو مخالفٍ لها و في تأريخِ البشريَّةِ كما يُؤكِّدُ ذلكُ الكثيرُ من المؤرخينَ كـ "إبن خلدون" و "ول ديورانت" و الفيلسوفِ محمد باقر الصدر(قدس)؛ نماذج كثيرة لأممٍ و حضاراتٍ قامت و ازدهرت ثم اختفت من الوجودِ، لكن المثلَ الأبرز الذي يرد فوراً إلى الأذهان هو؛ الامبراطورية "الفرعونية" و "الرومانية" و "الآغريقية" و "الفارسية" أو تلك التي حكمت بإسم الإسلام و الخلافة الإسلاميَّة من بعد رحلة الرسول(ص) و آخرها الأمبراطورية العثمانيَّة التي عاشت لستة قرون متصلة ثم اختفت من الوجودِ، أو بتعبير أدق ماتت مادياً و معنوياً للأبد، و هناك بعض دولاً كثيرة ماتت معنوياً فقط و لكنها لم تختفي إختفاءً مادياً كما هو الحال في الدول الغربية و العربية بشكل عام، أما الدول الآفريقية و كثير من الدول الآسيوية فأنها تعيش الموت و المأساة معاً.

الأمم قد توجد على قيد الحياة، لكن بلا وزن و لا تأثير و لا دور فاعل في عالم التقدم و الحضارة و المكانة بكل معانيها وسط الامم الاخرى ومقارنة بها.

و يرى علماء ألاجتماع و التآريخ و على رأسهم الأمام عليّ (ع) أنّ الأسباب الكامنة وراء ذلك هي:

غياب النظام العام الذي يشدّ الناس اليه و فساد منظومة الحكم و الحاكمين من خلال الاستبداد و الاستئثار بالسّلطة و السّلطان و أنتشار الفوضى العارمة و غياب رقابة المنظومة الإدارية و الأمنيّة الحاكمة لانشغالها بالسّرقات و الشهوات التي تولد الفساد الاجتماعي و إشاعة حالة الخنوع و المسالمة و سيطرة الفساد المالي و الاداري في مؤسسات الدولة الحاكمة و انهيار المسؤولية الفردية - أي إحساس الفرد بوطنيته و بمسئوليته تجاه المجتمع - و انهيار مكانة الدّين في المجتمع كقوّة مُرشدة و موجهة و هادية للناس تفكيراً و قيماً و سلوكاً و تفكك البنية الاجتماعيّة بالحساسيّة و الخصومة الدائمة و تشتت الوحدة الاجتماعيّة و غياب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و سيطرة الرّوح الانانيّة بين افراد المجتمع و تولي السفهاء و الأنتهازيين من الامة منظومة الحكم و القيادة المرجعية و ألأهمّ في كلّ ذلك هو ما لخّصه الأمام عليّ (ع) في ألنهج بقوله:

[يستدل على إديار الدول بأربع: تضييع الأصول و التمسك بالفروع؛ و ألغرور و التكبر؛ تقديم الأراذل و تأخير الافاضل؛ ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر].

و قد كتب المؤرخ البريطاني "لورد ماكولاي" حول إنهيار الأمم:

[ أن الامم تمر بمراحل متعددة منها:

مرحلة الأنتقال من العبودية الى الايمان الروحي,

و من الايمان الى البسالة و الشجاعة الفائقة,

و من الشجاعة الى الحرية,

و من الحرية الى الوفرة,

و من الوفرة الى الاستكانة و الرضا الفائق عن النفس,

و من الاستكانة الى الانانية المفرطة,

و من الانانية الى الاستهتار و اللامبالاة,

و من الاستهتار الى التبعية,

و من التبعية الى ألعبودية مجدداً].

و يَعتبر القرآن أن "المجتمعات تموتُ كما يموت أفراد, حيث يعتقد العلامة محمد حسين الطباطبائي صاحب الميزان بما جاء في قوله تعالى: (لكلّ أمةً أجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة و لا يستأخرون) بأنّ الأمم لها شخصيّة تمتاز بها و تلك الشخصيّة قد تموت بفعل عوامل سلبية.

و يقول: (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (الحجر:5).

و (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَاهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (المؤمنون:43). (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المنافقون:11).

فالامة التي تبني وجودها على الباطل و العنف و القتل و الذبح و الأنتهازية هي أمة واهية و ان كانت قوية في الظاهر، إلا أنزها ضعيفة في الواقع مهما تظاهرت بالقوة و البطش و الارهاب و آلعنف، لأنها لا تتفق و سنن الحياة الطبيعية، و يرفضها العقل و الفطرة، مما يجعلها عرضة للزوال، لان من طبيعة الباطل الزوال و الزهوق، تماما كبيت العنكبوت الذي قد يخدع الانسان بمدخله و مخارجه و شبكته آلهندسيه، و لكنه سرعان ما يطير مع هبات الريح، و كذا هو عذاب □ بالنسبة لتلك الامم، (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبْتُهَا وَإِنَّ أَوْلِيَاءَ الْعَنْكَبُوتِ لَوَ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:41).

لقد جعل □ تعالى سنّة طبيعية في عملية الصراع فلم يُميّز أمةً عن أمةٍ إلا من خلال عطائها و موقفها و احترامها للقيم الالهية التي تُحقق الأنسانية و العدالة، فاذا قصّرت الامة - و على رأسها الحكومة - و ابتعدت عن السنن الطبيعية التي رسمها □ سبحانه و تعالى للبشر فأزها ستموت و يُعذب بها كما عذب الأمم الأخرى و آالقران أشار لذلك بقوله:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْزَفْسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر:19).

و (إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْ أَسْمَاءَ الْبَشَرِ بِلَا خَرِينٍ وَكَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِذَلِكَ قَدِيرًا) (النساء:133)،

و (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَزْهَبَ اللَّهُ كَوْمًا مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ) (الأنعام:133)،

و (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة:39)،

و (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) (ابراهيم:19)،

و (إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) (فاطر:16).

في الحقيقة .. إنَّ ما قدّمناه كانتْ مُقدِّمة لدراساتٍ مفصّلة، ربّما ستُطبع في مؤلف كامل في المستقبل، و سنحاول عرض بعض حلقاتها للقراء الأفاضل، خصوصاً للذين طلبوا منّا تقديم مثل هذه الدراسات التي لا بُدّ من معرفتها خصوصاً في هذا الطرف العصيب الذي يؤشر للموت بكلتا بُعديه و من  
□ التوفيق.